الغيث الفاظه ومعانيه في الشعر العربي

الدكتورة سهام الفريح

قسم اللغة العربية ـ جامعة الكويت

للمطر وقع خاص في نفوس العرب ، فهو بدء الخصب ، حيث تتوقف الصحراء على المطر لذا نراهم يستبشرون بقدومه ، وكان من الطبيعي أن يلتفت العربي في شعره لهذه الظاهرة ·

اما ما يعنينا في هذا البحث فهو متابعة هذه اللفظة ـ المطر ـ وغيرها من الألفاظ المتصلة بها في لغة العرب ، وبيان دلالاتها ووجوه استخدامها في الشعر العربي ·

وقد عمدنا الى استخدام لفظة (الغيث) بدلا من المطر وجعلناها عنوان هذا البحث لانها اكثر فصاحة وبيانا ، ولعذوبة نطقها ولين حروفها مما لا يتوافر في غيرها من الألفاظ في هذا المعنى ، وكما أشار الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين ١ : ٢٠) (وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها ، الا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الكريم الجوع الا في موضع العقاب أو موضع الفقر المدقع ، والعجز الظاهر والناس لا يذكرون السغب والجوع في حال القدرة والسلامة ، وكذلك ذكر المطر ، لانك لا تجد القرآن يلفظ به الا في موضع الانتقام ، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث) ، وكذلك ما رواه الاصمعي عن ذي الرمة يدور حول هذه اللفظة ويميل الى استخدامها بدلا من لفظة (المطر) لفصاحتها · حيث قال :ـ (قاتل الله أمة بنى فلان ما

أفصحها قلت لها : كيف كان المطر عندكم ؟ غثنا ما شئنا) . (لسان العرب : مادة غيث) .

وحتى لا يأخذنا الجاحظ بطبعه ونسترسل كاسترساله في كتبه ورسائله ، علينا أن نقف أولا عند المعنى اللغوي لهذه اللفظة ، فاشارة الجاحظ تؤكدها الآيات القرآنية الكريمة التي وردت فيها لفظة (المطر) وهي جميعها تعني العذاب والانتقام ومنها قوله تعالى : (وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) (٨٤ ك الاعراف ٧) ، وكذلك قوله سبحانه وتعالى : (ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء) (٤٠ ك الفرقان ٢٥) ، وكذلك قوله تعالى : (ولا جناح عليكم ان كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا اسلحتكم وخذوا حذركم ان الله أعد للكافرين عذابا مهينا) (١٠٢ م سورة النساء ٤) وقوله تعالى : (وامطرنا عليهم حجارة من سجيل) (الاية ٧٤ ك الحجر ١٥) ، فلفظة المطر لم ترد في القرآن الكريم الا بهذا المعنى .

أما لفظة (الغيث) فقد وردت في القرآن الكريم وهي تعني المطر ، ومن معانيها الاغاثة : أي الاعانة ـ كما اشرنا سابقا ـ وذلك كقوله تعالى : الشورى ٤٢) فقد اتصل معناها بالرحمة أيضا في هذه الآية . أما عن (وهو الذي ينزل الغيث من بعدما قنطوا وينشر رحمته) (الآية ٢٨ ك ورود لفظة (المطر) في الحديث الشريف ، فقد جاءت وهي تعني المعنيين فقد ترد وهي تعني الاغاثة والخير ، وجاءت أيضا وهي تعني العذاب والغضب ، ففي معنى الخير قوله صلى الله عليه وسلم : (فاستهلت السماء في تلك الليلة فأمطرت) ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم ويقال وفي الحديث : (فاما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي) ، وقد تعنى المطر الغزير الذي يحدث بسببه الدمار كما في قوله صلى الله عليه وسلم ويقال وفي الحديث : (وانه يمطر المطر ولا ينبت الشجر) وقوله أيضا صلى الله عليه وسلم ويقال وفي الحديث : (وان كشفه الله عز وجل

ولم يمطر حمد الله على ذلك) ، وقوله صلى الله عليه وسلم ويقال وفي الحديث : (وهاجت السماء فمطرنا) (انظر المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي ج ٦ ص ٢٣٩) .

أما لفظة (الغيث) فلا خلاف في معناها فهي تعني ـ دائما ـ الاغاثة والخير ، وقد جاءت بهذا المعنى في الحديث النبوي الشريف ، وذلك في مثل قوله صلى الله عليه وسلم ويقال وفي الحديث (يسقى بهم الغيث وينتصر بهم على الاعداء) وقوله أيضا صلى الله عليه وسلم ويقال وفي الحديث : (اذا رأى الغيث قال اللهم طيبا هنيئا) ، وقوله صلى الله عليه وسلم الذي شبه فيه العلم بالغيث الكثير الذي يصيب الارض (والعلم كمثل غيث ، الغيث الكثير الذي اصاب الارض فكان منها نقية) (انظر المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي ج ٥ ص ٣١) (صحيح البخاري ج ١ ص ٣) .

أما بالنسبة لكتب المعاجم غير (لسان العرب) ففي اشارة صاحب كتاب (الافصاح في فقه اللغة) (وقيل : مطرت السماء وامطرت في الرحمة، وامطرت بالألف لا غير العذاب) (ج ٢ ص ٩٥٠) .

وأما ما جاء في كتاب (النهاية في غريب الحديث والاثر لابن الاثير) فهو (خير نسائكم العطرة المطرة ، وهي التي تتنظف بالماء اخذ من لفظ المطر ، كأنها مطرت فهي مطرة : أي صارت ممطرة مغسولة) (ج ٣٤ ص ٢٣٩) .

أما بالنسبة لوردها في الشعر العربي القديم فهي تأتي بلفظة (المطر (وهي تعني (الغيث) والخير ، وهي كثيرة في الشعر ، وفي مقدمة الشعراء الذين اهتموا بالمطر بصفته ظاهرة امرؤ القيس ، فقد أطال الحديث عن المطر وما اتصل به من الفاظ كالبرق والسحب والسيل ، ولنتأمل قوله : الديوان ٢٤ ـ ٢٦ :

أحار ترى برقا كأن وميضه
كلمع اليدين في حبي مكلل

يضيء سناه أو مصابيح راهب
اهان السليط بالذبال المفتل

قعدت له وصحبتي بين حامر
وبين اكام بعدما متأمل

وأضحى يسح الماء عن كل فيقة
يكب على الاذقان دوح الكنهبل

كان ابانا في افانين ودقه
كبير اناس في بجاد مزمل

والقى بصحراء الغبيط بعاعه
نزول اليماني ذي العياب المحمل

كأن سباعا فيه غرقى غدية
بارجائه القصوى انابيش عنصل

والقى ببسيان مع الليل بركه
فانزل منه العصم من كل منزل

والملاحظة العامة ان امرأ القيس متأثر في وصف الطبيعة بالشاعر ابي دؤاد ، وخاصة حين يرى امرؤ القيس ان جبل (ثبير) أو (أبان) حين اكتسى بالنبت بعد المطر ، يشبه شيخا كبيرا يكتسى كساء مخططا معلما .

ونحن نقف أمام هذا المقطع لا لنسجل وضوح اللفظة (المطر)

واستخداماتها عند امرىء القيس وذلك ليس بسبب عدم ورودها لفظا في هذا المقطع وانما وقفنا عند الجانب الفني وموقف الشاعر من الطبيعة ، لكي يتهيأ لنا التوغل في ذهنية الشاعر لتعرف هذه الجوانب الفنية المتميزة عنده والتي من خلالها نتوصل الى غايته في استخدام هذه اللفظة .

فقد وصف في هذا المقطع البرق والغيث والسحب ونجده وان لم يرد ذكر لفظتي (الغيث والمطر) نصا الا اننا نجد رؤية بعيدة تجمع بين مختلفات ومتباعدات في ظاهر معناها تعمق الصورة لهذه الظاهرة الكونية وكيف انها تجمع بين الدمار والنماء في آن واحد وهي تظهر في البيت الذي يقول فيه :

وألقى ببسيان مع الليل بركة
فانزل منه العصم من كل منزل

ففي هذا البيت يصور المطر ـ دون ان يذكر لفظه ـ الذي يقتلع النباتات من اصولها ، ويهدم المنازل ويقتلع الشجر ، ويدفع الحيوان الى الفرار من موقعه هذا لموقع آمن يطلب فيه النجاة . فالشاعر هنا لم تدفعه نفس تتلذذ بمشاهدة الدمار الذي قد يؤدي الى العذاب وانما هو يصور مظهرا حقيقيا لهذه الظاهرة في بعض جوانبها ، وهي في بعض حالاتها تؤدي الى الدمار ، اما النماء فيظهر في الابيات التالية (الديوان ٢٤ ـ ٢٦) :

أحار ترى برقا كأن وميضه
كلمع اليدين في حبي مكلل
يضيء سناه أو مصابيح راهب
أهان السليط بالذبال المفتل
واضحى يسح الماء عن كل فيقة
يكب على الاذقان دوح الكنهبل

كأن سباعا فيه غرقى غدية
بأرجائه القصوى أنابيش عنصل

الشاعر في هذه الأبيات أراد ان يصف هذه الظواهر الكونية بفنية خاصة به أولا ، ومن ثم يحدد معاني النماء والرخاء والاغاثة لهذه الظاهرة أو لعله أراد ان يحدد هذه المعاني من خلال هذا الوصف المتميز ·

يخاطب صاحبا له ويقول ان هذا البرق الذي يلمع بين السحب المتراكمة كلمع اليدين تتحركان بسرعة أو كمصباح راهب أمال الزيت على فتيلة ، فهناك ربط خفي بين تقليب اليدين ومصباح الراهب ، حيث ادتا هاتان الحركتان الى ولادة المطر ، وقد تتضح صور الخير والنماء الذي يبعثه الغيث في الأبيات الاخرى ، فلم يعد هذا المطر قوة مدمرة فقط افزعت الحيوان واقتلعت أشجار الكنهبل ولم يترك في تيماء جذع نخلة ، وانما سالت هذه الامطار على الجبل فغطته بالماء والغثاء حتى أصبح كشيخ ملتف برداء مخطط هو بهيئة سيد القوم ، فالتفت الى الصحراء المجاورة فوجدها بعد سكون المطر كأنها لبست حلة مزدهرة حتى أصبحت كبضاعة التاجر اليماني التي عرضها بألوانها الزاهية ، وان كان هذا تأثير الغيث على الارض فله تأثير آخر على الطير ، فقد بعث فيها حياة حتى اخذت تشدو بانتشاء وكأنها شربت من أجود الخمور واعتقها ، فالغيث أو المطر الذي وصفه امرؤ القيس (كما ذكر مصطفى ناصف بعيد عن صورة الدمار ، بل كان في الوقت نفسه اشبه ببحث وجداني صعب قاس يحتاج الى تضحيات وفداء وعذاب ، ولكنه يستاهل كل ما يبذل فيه من خوف وولاء معا) (قراءة ثانية ١٢٩) ويقول عنه الدكتور سيد نوفل : (وفي هذا الوصف تبدو فتنة الشاعر بالغيث ، فقد تتبع رحلته من بدايتها الى نهايتها ، وأحاط بجميع أحواله ، وصور كلا منها ، والغيث عنده عظيم كريم قوي ، ينصر الضعفاء ، ويداعب الأقوياء ، ويبطش بالفاتكين ، كأنه

قوة العالم المدبرة ، اضعف من شأن الجبال ، وكر على الوحوش السباع فاغرقها وجعلها تافهة ، فاذا بلغ الصحراء الفقيرة الواطئة اغناها وجادها وجعلها في طرب وحبور) (شعر الطبيعة ص ٤٨) ٠

وهو ـ أي الغيث ـ كما ذكر الدكتور العشماوي (من الشدة والعنف بحيث استطاع ان يكتسح لتدفقه وقوته كل ما في طريقه ، وان يقتلع أشجار الكنهبل اقتلاعا ٠٠ ثم انظر بعد ذلك الى صفحة الصحراء بعد سكوت المطر عنها كيف لبست ثيابا أخرى جديدة ، فازدهرت وربت وعلا فيها النبات من كل لون) ثم يعود ثانية ليؤكد قائلا (ولكن للغيث الى جانب هذه الاثار الجميلة التي تركها اثارا أخرى أليمة فقد غرقت السباع في سيول هذا المطر وتلطخت بالطين والكدر فبدت وهي على هذه الحال اشبه باصول البصل البري حيث تنتزعه من الارض ملطخا بالطين والماء الكدر) (قضايا النقد ص ١٩٨ ـ ١٩٩) ٠

ونجد امرأ القيس يذكر لفظة (المطر) في أحد أشعاره ويريد بها معنى الحياة والخلود فقد جعل من لحظات الحب السعيدة التي امضاها مع محبوبته تنهال عليه كالمطر المنهمر فأعطته الخلود ، فنراه في هذه الحالة استخدم لفظة المطر ـ كما ذكرنا ـ واراد بها السعادة الغامرة التي عاشها ، وهو قوله (الديوان ص ٢٣١) :

فأبيت أنعم ناعم مطر الصبا
لو نال حيا نالني الخلد

وامرؤ القيس مع كثرة وقوفه عند هذه الظاهرة قد ورد لفظ (الغيث) في شعره على نحو ما نعرف من قوله (الديوان ص ٢٦٦) ٠

وغيث مرته الريح فاعتم نبته
بهى تناصيه الوحوش قد اثمرا

اذا رجفت فيه رحا مرجحنة

تبعج بالرعـــد الحبى مسيرا

كأن الولايا نشرت في تلاعه

واعلاق تجار اذا اليوم اظهرا

قصد بالغيث هنا العشب والكلاء الذي اعتلى الارض حتى غطى نواصي الوحوش ، وصاحب هذا الغيث صوت الرعد الذي شبهه بصوت الرحى الذي أخذ يشق السحاب المتداني . وفي البيت الاخير نجد تشبيه الارض الزاهية بألوان الازهار والعشب التي شبهها باعلاق التجار ذات الالوان الزاهية ، وهذا التشبيه يلح على امرىء القيس فقد ورد أيضا في الأبيات السابقة . وعلى نحو ما نعرف من قوله (الديوان ص ٨٧) :

وغيث من الوسمى ، حو تلاعه

تبطنته بشـــيظم الصـــلتان

وقوله (الديوان ص ٩١) :

وغيث كالوان الفنا قد هبطته

تعاور فيه كل اوطف حنّان

وقوله (الديوان ص ٣٦) :

وقد اغتدى والطـير في وكناتهـا

لغيث من الوســمي رائده خـال

وقوله (الديوان ص ١٧٤) :

وادركهن ثانيا مـــن عنـانه

كغيث العشـّى الاقهب المتودق

ونجد تتابعا لذكر الغيث في كل العصور ، ذلك لان الشعراء فضلوا

هذه (اللفظة) على غيرها لانهم تفاءلوا بها اولا ولانها مما يسهل ورودها في العديد من التفاعيل المعروفة في العروض . واذا انتقلنا مع هذه اللفظة (المطر) أو مرادفتها (الغيث) عند باقي الشعراء فاننا سنجدهما في دلالاتهما المختلفة ، فالمهلهل يصف السحاب والغيث والبرق وصفا جميلا رائعا تظهر فيه مقدرة الشاعر في حسن التشبيه وجمال الصورة ، وهو ما نجده في قوله :

كأن كواكب الجوزاء عودٌ
معطفة على رُبع كسير
كأن الجدى في مثناة ريق
اسير أو بمنزلة الاسير
كأن النجم اذ ولى سحيرا
فصال جلن في يوم مطير
كواكبها زواحف لاغبات
كأن سماءها بيدى مدير
كواكب ليلة طالت وغمت
فهذا الصبح راغمة فغوري

فالصورة التي رسمها الشاعر في هذه الابيات لوصف الحيوان والطبيعة تنقل مشاعر حزينة وقد اكمل هذا الوصف للناقة التي تبكي طفلها الكسير ، انها كانت تسير في ليل مطير واستخدم لفظة (المطر) لتكتمل الصورة الحزينة التي اراد رسمها الشاعر ، فالمطر هنا ليس بمعنى الخير أو ان ينقل مشاعر البهجة والسرور وانما جاء في جانب من جوانب المعنى المباشر لهذه اللفظة وهو الألم والحزن قول لبيد (الديوان ص ١١) :

وغيث بدكداك يزين وهاده
نبات كوشي العبقري المخلب

وتبقى هذه اللفظة (المطر) يتناولها الشعراء بمترادفاتها المختلفة تارة تعني الخير والنماء لتعكس مشاعر البهجة والسرور ، وتارة تعني البلاء والغضب والعقاب وقد يوظفها الشاعر لتعبر عما يجيش في نفسه من الألم واحزان واحباطات تعترض حياته فتطغي على النفس حتى تعبر عنها هذه اللفظة أو غيرها ، وقد يستخدمها الشاعر بأي معنى من المعنيين ، وقد تكون الضرورة الشعرية (الوزن والقافية والسياق) قد الزمته باستخدامها في غير معانيها الحقيقية ، والشواهد على ذلك عديدة ومتناثرة في دواوين الشعراء الجاهليين ، ويحضرنا في هذا الموقف بيت الشاعر امية بن أبي الصلت الذي يمدح به (ابا يزيد) سهيل بن عمرو بن عبد شمس القرشي خطيب قريش وأحد ساداتها في الجاهلية وهو الذي تولى صلح الحديبية (الديوان : ٣٩٣) :

يا أبا يزيد رأيت سيبك واسعا
وسماء جودك تستهل وتمطر

وعندما نتقدم قليلا فأول من يستوقفنا عند هذه اللفظة (ذو الرمة) شاعر الحب والصحراء كما وصفه د. يوسف خليف فقد عشق الصحراء وتعلق بها فأبدع في وصفها ووصف كل ما يتعلق بها من حيوان ونبات وطبيعة متحركة وساكنة والمطر هو احد مظاهر هذه الطبيعة التي خلبت لبه كما خلبت لبه مية ، فربط بين التشبيب بها فوصف مية الاولى وبين وصف الصحراء والغزل بالثانية ربطا شديدا ، لكن الذي يعنينا بالدرجة الاولى هو وضوح الخلاف بين معنيي (المطر ، والغيث) ، ويتضح هذا الامر في بعض الحالات وخاصة في قوله (الديوان ص ٢٩٩ ـ ٣٠٢) ـ (خليف ص ١٧٩) :

يلوح اذا افضى ويخفى بريقه
اذا ما اجنته غيوب المشاعر

فلما كسى الليل الشخوص تحلبت

على ظهره احـدى الليالي المواطر

ولعل هذه الابيات تذكرنا بمعلقة لبيد عن البقرة التي افترس السبع وليدها في تلك الليلة الممطرة فأخذت تسعى لتعثر على شجرة تسترها ، فهنا يصور لنا معاناة الثور الوحشي عندما كان منفردا في صحراء الدهناء التي تعتليها الكثبان ، وهو يفتش عن ربوة لعله يجد فيها ما يقتات به من النبات في ذلك النهار القائظ ، وما ان اقبل الليل حتى انعكس عليـه ببرودة شديدة ومطر خفيف زاد من برودة الليل وظلمته ، فالمطر هنـا زاد في معاناة الحيوان وشارك مع باقي مظاهر الطبيعة في قسوته عليها ، أما لفظة (الغيث) فتكررت كثيرا في شعره وخاصة في قصائد المدح كقوله في مدح ابان بن الوليد (الديوان ١٥٠ ـ ١٥٤) :

رأيت الناس ينتجعون غيثـا

بسائغة البياض الى الوحيـــد

وقد استخدم هذا اللفظ وهذا المعنى بصياغة مشابهة في لاميته التي مدح بها بلالا (الديوان ص ٤٤٢) :

سمعت الناس ينتجعون غيثا

فقلت لصـيدح انتجعي بلالا

ونجد ذا الرمة يستخدم لفظـة (الغيث) في معنى الغضب الذي تصوره الطبيعة في بعض أحوالها والعادة هو ان يستخدم لفظة (المطر) في غير معناها الخاص ، ولا نستطيع القول بأن ذا الرمة هـو الوحيد الذي استخدم لفظة الغيث في معنى الدمار اذ اننا لم نقم بالاستقراء المطلوب لهذا الجانب الا انه خلال الشواهد التي عرضناها كانت ولا تأتي بمعنى النماء والاغاثة ونصادف عنـد ذي الرمة غير ذلك كما سنرصده في قوله هـذا

مكتبة قسم اللغة العربية
كلية الآداب

(الديوان ص ٣٢ ـ ٣٣) :

حتى اذا الهيق امسى شام افرخه
وهن لا مؤيس نأيا ولا كثب
يرقد في ظل عراص ويطرده
خفيف نافجة عشنونها حصب
تبدى له صعلة خرجاء خاضعة
فالخرق دون بنات البيض منتهب
كأنها دلو بئر حد ما يحها
حتى اذا ما رآها خانها الكرب
ويلمها روحة والريح معصفة
والغيث مرتجز والليل مقترب

فالشاعر هنا ينقل لنا صور الحنو والعواطف التي عند الحيوان لصغاره ، واختار في هذه الأبيات النعامة والظليم وحنوهما على صغارهما ، فعند اقتراب الليل واشتداد البرد ببوادر عاصفة شديدة محملة بالمطر اخذا ينهبان الأرض عدوا للوصول الى صغارهما لحمايتهما من غضب الطبيعة وثورتها في تلك الليلة الموحشة ، ونجده استخدم (الغيث) وأراد به المطر الذي يزرع الخوف والرعب ، وليس الغيث بمعنى النماء والخير والاغاثة .

ونجد أيضا الشاعر الاخطل التغلبي يستخدم لفظة الغيث والمطر في خلال القصيدة التي مدح بها يزيد ابن معاوية (الجمهرة ص ٣٢٦ ، ٣٢٧) :

أو مقفر خاضب الاظلاف جاد له
غيث تظاهر في ميثاء مبكاري

قد بات في ظل ارطاة تكفئه

ريح شـآمية ، هبت بامطار

يجول ليلته والعـين تضربه

منها بغيث اجشى الرعد تيار

ففي البيت الاول كان لفظ (الغيث) في معنى المطر الذي غـذى الأرض فألانها ، اما البيت الثالث فقد جاء لفظ (الغيث) وقد عنى به المطر الغاضب وليؤكد غضبه صاحبه رعد اجش الصوت • ووردت لفظة (المطر) في البيت الثاني وهي تعنى المعنى الخاص بهـا • وهذا البيت يذكرنا ببيت للاعشى (جمهرة ص ١٢٧) :

فاذا نحن بالوحوش تراعى

صـوب غيث مجلجـل هجال

فهو غيث أيضا صاحبه رعد مجلجل الصوت •

وعندما نتقدم قليلا في عصور متأخرة يقابلنا الشاعر ابو تمام الذي كان مولعا بوصف الطبيعة ، فلا تكاد تخلو قصائده من الوقوف أمامهـا ليصور العديد من مظاهرها ويلونها بألوانه اللفظية والمعنوية التي تميز بها ، والتي لم تقف معه عند هذا الحد وانما مدها بالحركة والحياة لتكتمل الصورة في أشعاره ، ولما كان الغيث يهب الارض ربيعا زاهرا فقد صور هـذا الربيع بمظاهره الزاهية في شـعره ومنهـا قوله : (الديوان ج ١ ص ٢٣) :

ومعرس للغيث تخفق فوقـه

رايات كـل دجنـة وطفـاء

نشرت حدائقه فصـرن مآلفـا

لطـرائف الانواء والانـداء

فسقاه مسك الطل كافور الندى
وانحل فيه خيط كل سماء

غنى الربيع بروضـــه فكأنما
أهدى اليه الوشى من صنعاء

فالشاعر هنا استخدم لفظة (الغيث) في معناها الخاص والمباشر ، لكننا نجده في قصيدة أخرى ـ وان كانت تفوق هذه القصيدة في صياغاتها وحسن النظم فيها قـد خلط بين معنيي الغيث والمطر وذلك في القصيدة المشهورة التي وصف فيها بركة المتوكل (الديوان ج ٢ ص ١٩١ ـ ١٩٢) :

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر
وغدا الثرى في حليه يتكسر
نزلت مقدمة المصيف حميدة
ويد الشتاء جديدة لا تكفر
مطر يذوب الصحو منه وبعده
صحو يكاد من النضارة مضمر
غيثان : فالاتواء غيث ظاهر
لك وجهه ، والصحو غيث مضمر

وأبو تمام في هذا المقطع كان قد بلغ مداه في وصف الطبيعة الخلابة لكنه في الجانب الذي عنينا به في هذا البحث نجده قد مزج بين لفظتي (المطر ، والغيث) مزجا كاملا ، وذلك في سبيل تحقيق المعنى الذي قصده وجعل لفظة المطر كلفظة الغيث في دلالاتها وهي الخير والنماء ، ولم يأت هذا المزج لقصور فني فهمه للالفاظ ودلالاتها لكن الحاح هذه اللفظة على ذهنيته ، وانسجامها مع السياق اللفظي والعروضي جعله يستخدمها بمعنى النمـاء أيضا ، لكن مقدرة الشاعر الفائقة في استخدام أدواته ووسائله

الفنية التي تجسم الصورة التي أراد رسمها جعلها تبدو متكاملة لتنقل لنا ابداعاته في هذه القصيدة المتميزة في وصف الطبيعة ٠

ولشدة تعلق ابي تمـام بالطبيعة والمطر والغيث نجده يرددهما في اشعاره هذه فجاء ذكرهما أيضا في احدى قصائده المدحية حيث جعل المطر وانهماره الشديد وان منعه من الوصول الى الممدوح فحرمه من عطائه ، لكنه كان خيرا شمل الارض جميعا وزانها في حلة قشيبة جميلة وذلك في قوله (الديوان ج ٢ ص ٣٨٩ ، ٣٩٠) :

منع الزيارة والوصال سحائب
قسم القوارب جابه الاكتاف
ظلمت بنبي الحاج المهم وانصفت
عرض البسيطة ايما انصاف
(فاتت بمنفعة الرياض وضرها
اهل المنازل السنن الوصاف)
وعلمت ما يلقى المزور اذا همت
من ممطر ذفر وطين خفاف

وابو تمام يطلب من الغيث (ويعني به الخير الكثير) ان يحيى الاهل بمغداه وعند السرى ، وذلك حيث قال (الديوان ج ١ ص ٢٩٢) :

أيها الغيث حي أهلا بمغدا
ك وعند السرى وحين تؤوب

وابن الرومي وما عرف عنه من اغرامه بوصف الطبيعة كان مجيدا في وصفها وقد جاءت اجادته هذه نتيجة مقدرته الفائقة في الوصف عامة وذلك بما يمتلكه من أدوات فنية خاصة بهذا الفن ، وذلك لما تهيأ له من قـدرات في رصـد جوانب الصورة كاملـة حتى بدأت كاملة التشـخيص والتجسيم موفاة باللون والحركة والصوت ٠ لكن مع اغرام ابن الرومي

بالطبيعة فهو أيضا كغيره من الشعراء لا يقف عند ظاهرة (المطر) وقفة مباشرة فقد يستغل مدلولات هذه اللفظة لمعان أخرى والتي منها قوله (الديوان ج ١ ص ١١٢٤) :

اظلم ليلي وانت لي قمر
فنور الليل ، أيها القمر
اجدب سرحي وانت لي مطر
فزحزح الجدب ، ايها المطر

فمطر ابن الرومي هنا هو الخير والجود وليس الغضب والدمار الذي اراد من ممدوحه ان يجود به وان يزيل عن أرضه ـ أي نفسه ـ الجدب وان يكون له قمر يضيء ليل المظلم ، واستغل هذه اللفظة أيضا لتوضيح هذه المعاني وهي في الحقيقة على غير استخدامها الخاص وذلك في قوله (الديوان ج ٣ ص ١١١٣) :

متى استبطأ العافون رفدك ام متى
تقاضاك اثمان المحامد شاعر
ليهنىء رجالا لا تزال تجودهم
سحائب من كلتا يديك مواطر

ويصف الطبيعة ويذكر لفظة (المطر) بمعناها المباشر أحد مظاهر هذه الطبيعة ، لكنها ترد كما ترد عند العامة وذلك في قوله (الديوان ج ٣ ص ٩٨٣) :

وحلس من الكتان اخضر ناعم
توسنه داني الرباب مطير
اذا درجت فيه الشمال تتابعت
دوائبه حتى تقول : غدير

أما لفظة (الغيث) فتأتي بمعناها الخاص في ارجوزة له يصف فيها الطبيعة وهي قوله (الديوان ج ٣ ص ١١٧٦) :

لهوت عن وصف الطلول الدارسه
بروضة غذراء غير عانسه

جادت لها كل سماء راجسه
رائحة بالغيث أو مغالسه

فاصبحت من كل وشي لابسه
خضراء ما فيها خلاة يابسه

والمتنبي يستخدم لفظة (المطر) ويعني بها الشر والعقاب وذلك حين قال في مدح علي بن ابراهيم التنوخي (الديوان ج ٢ ص ٢٥٦) :

غمام ربما مطر انتقاما
فاقحط ودقه البلد المريعا

فقد جعل الممدوح غماما يمطر انتقاما على الأعداء ، وفي الأبيات التي تلت جعله سيلا وخيرا على أهله وبني قومه ، وذلك واضح في قوله : (الديوان ج ٢ ص ٢٥٦) :

فصيّر سيله بلدي غديرا
وصيّر خيره سنتي ربيعا

واستخدم لفظة (المطر) في المعنى السابق نفسه أيضا لكن كلماتها جاءت ذات وقع شديد ، وهي قوله (الديوان ج ٣ ص ١٠١) :

سحائب يمطرن الحديد عليهم
فكل مكان بالسيوف غسيل

فخاضت نجيع الجمع خوضا كأنه

بكل نجيع لم تخضه كفيل

فقد استخدم هذه اللفظة في وصف المعركة فشبه الخيل بالسحب التي تمطر الحديد من (سيوف ورماح وقنا) التي تغسل موقع المعركة بدماء الأعداء حتى تصبح بركا دموية ٠

وقد يستخدم المتنبي لفظة (المطر) كاستخدام العامة ويعني بها الخير الذي يجلب السرور ، وذلك في قوله (الديوان ج ٣ ص ٣٤٧) :

والذي ينبت البلاد سرورٌ

والذي تمطر السحاب مدام

فهو يستخدم لفظة (تمطر) في هذا البيت لتنقل مشاعر السرور ، فالممدوح في أي مكان يحل فيه تحل السعادة والسرور ، كما ان السحاب تمطر المدام لشدة الفرح والسرور أيضا ٠ وكذلك قوله (الديوان ج ٣ ص ٢٥٤) :

ممطورة طرقي اليها دونها

من جوده في كل فج وابل

يقول بان طرقي الى الممدوح ممطورة أي يملؤها الاحسان ، فالمتجه اليه يصل الى احسانه أو يقابله احسانه قبل الوصول اليه وقبل الوصول الى شخصه ٠

اما لفظة (الغيث) فقد وردت كثيرا في شعر المتنبي كغيره من الشعراء ، وهي الخير النماء في مثل قوله (ديوان ج ٣ ص ٢٧٨ – ٢٧٩) :

فكنت منبت روض الحزن باكره

غيث مغير سباخ الارض هطال

غيث يبين للنظار موقعه
ان الغيوث بما تأتيه جهال

فقد اعتبر الغيث الحقيقي يهطل في أحيان كثيرة بجهالة على الارض السبخة والطيبة على السواء ، اما غيث الممدوح فانه يهطل لمن هو بحاجة اليه ومن يستحقه ، وكذلك يرد ذكر (الغيث) في قصيدة مدح بها سيف‌الدولة ، وكان يسير معه وقد اشتد ذلك الغيث ، فقال (الديوان ج ١ ص ٤٦ ، ٤٧) :

تجف الارض من هذا الرباب
وتخلق ما كساها من ثياب
وما ينفك منك الدهر رطبا
ولا ينفك غيثك في انسكاب
تسايرك السواري والغوادي
مسايرة الاحباء الطراب
تفيد الجود منك فتحتذيه
وتعجز عن خلائقك العذاب

المتنبي في هذه الابيات يقابل بين غيث السماء وغيث سيف‌الدولة ، وان غيث السماء تجف الارض منه وتصير حلتها القشيبة بالية بعد فترة قصيرة ، وغيث سيف‌الدولة ـ أي عطاؤه ـ لا ينصب ، وذلك لان ماء الغيث ينقطع ، وعطاء سيف‌الدولة باق لا ينقطع ، ويجعل المتنبي السحب تساير سيف‌الدولة كما يساير الحبيب حبيبه لتتعلم السحب من جوده ، لكنها تعجز ان تأتي بمثل ما يأتي به من خير .

وما ان نتقدم قليلا حتى يلاقينا شاعر اثار الكثير حوله وحول نتاجه الفكري وهو كما قال عن نفسه (سقط الزند : ١٩٣) : ب

وقد سار ذكرى في البلاد فمن لهم

باخفاء شمس ضوؤها متكامل

ان ابا العـلاء المعري من الشعراء الذين اطلعوا على اللغة وشواردها وفصيحها وكان كغيره أيضا من المبرزين يحفظ الكثير من شعر الجاهليين وغيرهم ، حتى احاط من مفردات اللغة وشواردها ونوادرها بما لم يحط به العرب الاقحاح واطلع على أساليب البلغاء واسرار البلاغة بما لم يطلع عليه غيره فكان اهتمامه باللغة كاهتمامه بالشعر ، حتى غدت لغته الشعرية تعبيرا عـن حيـاته الفكرية والوجدانية ، وتصور مشاعره وأحاسيسه ، وتكشف عن ثقافته ، وترصد مراحل التطور الى مر بها منذ أول انتاج فني له وهو سقط الزند ، الهدف من هذه الاشارة السريعة الى لغة الشاعر ونبوغه في استخدام هذا اللغة في فنه هو الوقوف عند استخدامات الشاعر للفظتي (المطر ، والغيث) في شعره ، لكن ما يتوصل اليه قارىء شعره هو قلة وصفه للطبيعة كوقفة غيره من الشعراء السابقين سواء كانوا في العصر الجاهلي أو العصور القريبة من عصر ابي العلاء ، ولعل سيطرة الجوانب الفلسفية والفكرية على ذهنية الشاعر طغت على غيرها من الفنون الشعرية الاخرى ، وقد نلاحظ انه حتى في استخدامه لهاتين اللفظتين أو غيرهما من الفاظ في صفات الطبيعة ، فهو لا يستخدمها لابراز المعنى المباشر لها وانما ليدلل على معان أخرى أراد توضيحها أو الحديث عنها ، ومن استخداماته لهاتين اللفظتين قوله (سقط الزند : ٥٣) :

اذا ما الغيم لم يمطر بلادا

فان لـــه على يدك اتكـالا

فهو يخاطب الممدوح بقوله هذا ويجعل نائله وعطاءه يكفي البـلاد اذا ما مسك السحاب القطر لانه واثق بفيض يدي الممدوح . وقد استخدم الفعل (يمطر) وقصد به الجود والخير ، وكان ابو عبيدة يقول في الرحمة مطروا وامطروا في العذاب ، ويحتج بقوله تعالى : (أمطر علينا حجارة من

السماء) (٤٢ ك الانفال ٨) وحكى غيره انه يقال : امطر في الرحمة وهو الصحيح بدليل قوله تعالى : (هذا عارض ممطرنا) (٢٤ ك الاحقاف ٤٦)٠ فان اجاز بعض اللغويين صحة استخدام هذه اللفظة في الجود واحتجوا بالآية الكريمة المذكورة نجد ان الشاعر يستخدم اللفظة نفسها (تمطر) في بيت آخر ويقصد بها العذاب وهو قوله (اللزوميات ص ١٣٨) :

اتت جـامع يوم العروبة جامعـا
تقص على الشهاد بالمصـر أمرهـا
فلو لم يقوموا ناصرين لصوتها
لخلت سماء الله تمطر حجرها

فعند انتقالنا الى أمثلة أخرى من شعر ابي العلاء يتبين لنا ان الشاعر استخدم هـذه اللفظة (المطر) استخدام العامة لها فنجـد مثلا في قوله (سقط الزند ٦٢) :

والمرء ما لم تفد نفعا اقامته
غيم حمى الشمس لم يمطر ولم يسر

قصد بالمطر هنا الغيث ، وكذلك في قوله (سقط الزند : ٥٦) :

وان بخلت عن الاحياء كلهم
فاسق المواطر حيا من بني مطـر

وقوله أيضا (اللزوميات ص ٤٨) :

وان وصلت فشكري شكر بروقة
ترضى ببرق من الامطار خلاب

أنا لفظة (الغيث) فترد في شعره ولا خلاف حولها كما هي الحال عند غيره من الشعراء ومن أمثلها قوله (سقط الزند : ٨٥) :

وقاسم الجـود في عال ومنخفض

كقسمة الغيث بين النجم والشجر

وهـو يخاطب ممدوحه بانه يقسم نائله بين الفقير والغني كقسمة الغيث بين النجم والشجر (النجم من الشجر ما لم يكن له ساق) ·

واستخدم لفظة (الغيث) أيضا بمعناها المباشر واراد منها التدليل على ان الغيث امره من عند الله سبحانه وتعالى ولا علاقة للانواء بحدوثه وهو قوله (سقط الزند : ٢٧٢) :

ولست بالناسب غيثاً همى

الى السماكين ولا المـرزم

وكذلك قوله (سقط الزند : ٢٤٧) :

فهل فيك من ماء المعرة قطـرة

تغيث بهـا ظمآن ليس يسال

فهو يتشوق الى ماء المعرة الذي يتمناه ، ويتلهف عليه ، وهو عنده يغيث العطشان ·

وكذلك قوله (سقط الزند : ٢١٥) :

بأرض لا يصوب الغيث فيهـا

ولا ترعى البـداة بهـا النقادا

يقول في هذا البيت كيف اجريت خيولك بقفار ليس فيها نبت ولا شارة ولا راع ، وكيف يكون فيها اولئك ولا يصل اليها سحاب ·

فأبو العلاء في وصف المطر سواء استخدم هذه اللفظة أو لفظة الغيث لا يخرج بها عن طريقته في الوصف عامة ، فهو يصف الاشياء بما يتناسب مع رسمها في خياله ولا تظهر اجادته الا في وصف الاشياء المعنوية كاللذة

والالم والحـزن والفرح ، وكألوان القـول وفنون الكلام ، فهو في وصف الطبيعة وغيرها من المحسوسات كما قال عنه طه حسين (اما ان يكـون عيالا على غيره من الوصاف المبصرين ، فيأخذ عنهم ما قالوا ، وينفخ فيه من نظمه روحا خاصا ، وليس هو في هذه الحال واصفا ولا شاعرا ، وانما هو نظام ، واما ان يملكه الغرور ، ويأخذه العجب فيتناول الاشياء المبصـرة بالوصف والتفصيل من غير ان يأتم بغيره أو يترسم خطو شاعر آخر ، وهو في هذه الحال عرضة الخطأ والسخف الكثير) ، (تجديد ذكرى ابي العلاء ١٩٣٥) ٠

وبعد متابعة لعدد من الشعراء في العصور الادبية المتقدمة ومعرفتنا باستخداماتهم لهذه اللفظة في شعرهم نخلص الى اننا لا نجد شاعرا تميز عن غيره باستخدام هذه اللفظة (المطر (بمعناها الخاص بشكل واضح ومحدد ، وانمـا نجدهم جميعـا يستخدمونها سواء في معناها المباشر أو استغلالها لمعاني أخرى وهم يعنون الخير والنماء ويعنون الغضب والعذاب دون تمييز واضح ٠

★ ★ ★

ان ابداعات شعراء المغرب والأندلس ، ومظاهر تميزهم ، تتضح في وصف الطبيعة التي شغفوا بهـا ، فلم يخـل منهـا غرض من أغراضهم الشعرية ، فان مدحوا خصوصا بنصيب وافر من مدحهم وقد تكون سبيلا الى الممدوح ، وان تغزلوا متلهفين الى احبتهم كانت الوسيلة التي تصور لذة اللقاء ٠

فهذا العشق للطبيعة عند شعراء المغرب والاندلس منحهـم خيـالا بارعا ، وتشابيهه جميلة منتقاة ، فتميزت أشعارهم بسببها بالرقة واللطف اللذين كانا ظاهرة في أشعارهم ، فأول من يلقانا من شعرائهم ابن هاني

الاندلسي الذي يلقب بمتنبيء المغرب وان عد ابن هاني من شعراء الوصف الا انه مقل في وصف الطبيعة بخلاف غيره من شعراء الأندلس ، فقد شغلته السياسة ومدح الأمراء ، وغلوه في مذهبه عن النظر الى جمـال الطبيعة ، ونقل صورها وألوانها الجميلة في قصائده لكن لم يمنعنا هذا من النظر في ديوانه واستقراء شعره لالتقاط الأبيات التي جاءت فيها لفظتا (المطـر والغيث) وبعد الاستقراء خلصنا الى أن لفظة (المزن) جاء ورودها في شعره بكثرة غلبت ورود لفظتي (المطر والغيث) ·

فمن اشعاره التي جاء فيها ذكر المطر قوله (الديوان ص ١٥٠) :

ورسوا رجحي حتى استخف متالع
وهمـوا ندى فاستحيت الامطار

وقصد بهذه القصيدة الممدوح يحيى بن علي الاندلسي وقصد بالامطار الخير والجود ·

وكذلك في قوله (الديوان ص ١٦٨) :

شهد الغمام وان سقاك حيا
أن الغمـام اليـك مفتقـر

كم من يد لك غير واحدة
لا الدمع يكفرها ولا المطـر

يريد ان انصباب دموع الناس والمطر انما هو شكر لنعمك فجعل المطر علامة الشكر لهـذا الممدوح الجـواد الكريم فهي أتت أيضا بمعناها العـام ·

أما أشعاره التي جاءت فيهـا لفظـة الغيث فمنهـا قوله (الديوان ص ١٠٣) :

ولو طلبت في الغيث منك سجية

لقد عز موجود وعز وجـود

وهو المبالغة في وصف الممدوح بالكرم والجود فكأن الغيث يأخـذ صفاته في هذا الجانب من الممدوح وكما نرى ان لفظة (الغيث) في كـل اشعار الشعراء التي مرت لا تثير الجدل في دراستنا كلفظة المطر فهي تأتي بمعناها الخاص ٠

وكذلك الحال في قوله (الديوان ص ١١٢) :

لقد اغتدى والمجد فوق سريره

والغيث تحت رواقه الممـدود

وفي قوله أيضا : (الديوان ١٥٨) :

كبدر الدجى كالشمس ، كالفجر كالضحى

كصرف الردى ، كالليث كالغيث كالبحر

فجاءت لفظة الغيث لتتناسب مع السياق الذي تكلفه الشاعر مراعاة لتحقيق جمال الصياغة في نظمه ٠

والسرى الرفاء الذي نشأ بالموصل واكتملت شاعريته وحياته الأدبية عامة بالشام ، عاش في بيئة هيأت له من جمالها وزينتها أن يصدر بشعر زاد فوق جمال الطبيعة وسحرها جمالا وسحرا بابداعاته اللفظية والمعنوية ومن خلال هذا الفن الذي هو منه وصف الطبيعة نلتقط من أشعاره بعض الأبيات التي ترد فيها لفظتا (المطر والغيث) وحتى لا نستطرد في الحديث عن الجانب الفني وابداعاته ونقف عند هاتين اللفظتين وطبيعة استخدامهما عند هذا الشاعر فقط فنرى ان لفظة (المطر) وردت في مثل قوله (اليتيمة ج ٢ ص ١٨٥) :

قسمت قلبي بين الهم والكمد
ومقلتي بين فيض الدمع والسهد
ورحت في الحسن أشكالا مقسمة
بين الهلال وبين الغصن والعقد
أريتني مطرا ينهل ساكنه
من الجفون وبرقا لاح من برد
ووجنة لا يروى ماؤها ظمئي
بخلا وقد لذعت نيرانها كبدي
فكيف أبقى على ماء الشئون وما
أبقى الغرام على صبري ولا جلدي

فقد جاءت لفظة (المطر) ضمن هذه المقطوعة الغزلية فاستعار عنصرين من عناصر الطبيعة وهما المطر والبرق ليصف حاله مع المحبوب حيث شبه دموعه وشدة انهمارها بالمطر ، فاللفظة هنا لم ترد والقصد منها أي من المعنيين العام أو الخاص أي معنى الخير والنماء أو معنى الدمار وانما أراد وصف حالة انسكاب الدمع من عينيه بالمطر المنهمر بشدة .

وقد جاءت لفظة المطر ضمن مقطوعة وصف بها غرفة لصديق له دعاه تطل شرفتها على روضة غناء (اليتيمة ج ٢ ص ٢٠٩) :

لنا غرفة حسنت منظرا
وطابت لساكنها مخبرا
ترى العين من تحتها روضة
ومن فوقها عرضا ممطرا
وينساب من قدامها جدول
كما ذعر الآيم أو نفرا

وراح كأن نسيم الصبا

يحمل من نشرها العنبرا

لفظة المطر ترد في السياق لتكمل الصورة الجميلة التي انعكست على ذهنية الشاعر لينقل شعرا منظر الروضة الغناء والجدول المنساب من قدامها ، وكيف ان نسيم الصبا سقط على الازهار فأذكى ريحها الذي جاء كريح العنبر فهذه الصور الجميلة المتتالية نخلص بها الى ان الشاعر لم يستخدم لفظة المطر ويريد بها الدمار وانما اراد بها النماء والحياة .

أما لفظة الغيث وان كان ورودها عند جميع الشعراء لا خلاف حوله كالخلاف الذي حول لفظة) المطر (فعلينا ان نستشهد ببعض الأبيات عند كل شاعر لكي تكتمل الصورة وتتضح في موضوع هذه الدراسة . فهي ترد في شعره في مثل قوله (اليتيمة ج ٢ ص ١٥٠) :

تبسم برق الغيم فاختال ضاحكا

وحل عقود الغيث فارفض هاملا

فقلت علي منك أعلى صنائعا

اذا ما رجوناه ارجى مخايلا

وقوله أيضا (اليتيمة ج ٢ ص ١٥٦) :

الغيث والليل والهلال اذا

أقمر بأسا وبهجة وندى

ناس من الجود ما يجود به

وذاكر منه كل ما وعدا

ففي المقطوعتين قصد الشاعر من لفظة الغيث الخير والنماء .

★ ★ ★

ويأتي وصف الطبيعة عند ابن قلاقس ضمن فن الوصف عامة ، الذي برز فيه الشاعر وتفوق ، وقد عرض لهذا الفن في مقطوعات مستقلة حينا وفي مقدمات قصائده أحيانا أخرى ، مازجا بينه وبين الخمرة أو بينه وبين الغزل ، أو مستقلا بذاته .

وأكثر ما يلفت الانتباه في وصفه للطبيعة انفعاله وهو يطالع الرياض وقد تخللتها الغدران ولاعب أشجارها الصبا ، وغردت الاطيار في أغصانها وتساقط الندى على الأوراد ففاح أريجها وانتشر ، ويأتي ضمن هذا كله ذكر لفظتي (المطر والغيث) اللتين وردتا في شعره بكثرة ، وذلك في مثل قوله (الديوان ق ١٠٧ ص ٢٢٧) :

ما امتطينا أخت السحائب الا
لتوافي بنـــا أخـــا الآمطـار

فلفظة (الأمطار) جاءت في قصيدة المدح هذه وعني بها الجود والنوال حين وصف الممدوح وجعله بسببهما أخا للامطار وكذلك قوله (الديوان ق ٣٢٣ ص ٤٤١) :

لكنني كالروض من عـاداته
ان تنتحيـه ركائب الامطـار
فأتيت نحوك للسؤال موفقـا
فظفرت في الأوطان والأوطار

وترد هـذه اللفظـة في قصائد كثيرة للشـاعر وفي المعنى نفسـه والاستخدام نفسه كقوله أيضا (الديوان ق ٣١١ ص ٤٢٢) :

فمـا بال عـارض احسانه
على روض شعرك لا يمطر

وكـذلك قوله في مدح القاضـي بن الحبـاب (الديوان ق ٣٠٩ ص ٤٣٠) :

قلت وزهو الزهر مستغرق
بعارض من صبحه ماطـر

وكـذلك من قصيدة في مدح القاضي السـلفي (الديوان ق ٣٠٠ ص ٤٢٤) :

للبشـر برق بين ارجـائه
وللنـــدى الفائض امطـار

وقوله أيضا (الديوان ق ١٧٢ ص ٣١٢) :

أي يوم مضى لنا في رياض
عرّست في عراسها الامطار

جاءت لفظة (الأمطار) ضمن مقطع وصف الطبيعة لذاتها وقصـد بالأمطار هنا أمطار الخير والنماء وليست أمطار العذاب والغضب ٠

أما لفظة الغيث فترد في شعره كثيرا وهي لا تعني الا الخير والنماء وقد ترد من خلال مدحه بعض الشخصيات التي اتصل بها ، كمثل قوله (الديوان ق ٧ ص ١١٦) :

الحيا من غيوثك البارقات
والجنى من اصولك الباسقات

ومن قصيدة مدح بها السلفي يقول (الديوان ق ١٥٣ ص ٢٧٩) :

كالغيث لكن حيا هذا لهي أبدا
فمن هنا هو حقا فارق المطرا

فقصد بها النبت الذي كان متلهفا الى المطر ٠

وفي السلفي أيضا قال (الديوان ق ٢١٩ ص ٣٤٢) :

يمينك الغيث الا انه هطل
وخلفك الزهر الا انه خضل

★ ★ ★

وبعد ابن قلاقس ننتقل الى أحد الشعراء المتأخرين وهو ابن سناء الملك ، وان كان شعره لا يرقى الى مصاف الشعراء الذين مررنا بهم خلال هذا البحث ، اذ لا يعنينا المكانة الفنية للشاعر ، وليست هي محور البحث بقدر ما يعنينا تتبع لفظة (المطر) وطريقة استخدامها عند الشاعر ، وبعد المتابعة صادفتنا لفظة (الغيث) كثيرا في شعره حتى اعتقدنا معها ان الشاعر قد نحى المنحى الصحيح ، وانه لن يستخدم هـذه اللفظة الا في معناها الخاص ، لكن ما ان وصلنا الى قافية الراء حتى وجدنا الشعر تتداعى عليه هذه اللفظة في مثل قوله (الديوان ص ٢٨٠) :

يا مجدب الحال زر ناديه معتفيا
وأسأل نداه ولا تسأل عن المطر

فقافية الراء جعلته يستخدم لفظة (المطر) حيث قصد بها النوال والعطاء في وصف جود الملك العادل بهما .

ولا تزال هذه اللفظة تتواتر في قافيـة الراء ، فمن الواضح انـه يتلقطها بين الحين والآخر حتى تتلائم مع هذه القافية فنجده يقول في مدح الملك العزيز (الديوان ص ٣٢٠) :

أمطرتني بالجود فاسمع لما
أنشئه من خاطري الماطر

ونجده يستخدم لفظة (أمطرتني) بالجود وقـد وردت في القرآن

الكريم ـ كما مر بنا ـ وهي للعذاب والعقاب وقد استخدمها بصيغة أخرى (الماطر) عندما أراد ان يرد على جود الممدوح بجوده الخاص وهو انشاؤه قصائد المدح فيه ·

وكذلك ترد في المعنى نفسه وفي صياغة مشابهة (الديوان ص ٣٩٦) :

وأنا الولي وقد عطشـ
ـت الى سحائبك المواطر

فوصف نفسه بانه العطشان الى سحائب جود الممدوح التي هي دائما تجود والذي اثبت ديمومتها لفظة المواطر ·

وقد جاء ذكر المطر في قصيدة له جمع فيها بين الغزل والخمرة ، وصف يومه وهو يعب الخمرة مع صحبة له في يوم مطير ترفرف السعادة عليهم ، حتى تراءى له وكأن الرعد يترنم ، وبأن قطرات المطر أحسنت الرقص وأجادت حتى صفق لها الرعد (الديوان ص ٤٥٣) :

ويوم مطير قد ترنم رعده
وصفق لما أحسن القطر في الرقص

شربنا على هذا وذاك مدامة
بدت كالعقيق الرطب والذهب الرخص

فقد جاء ذكر المطر لذاته حتى وصفه مع عناصر الطبيعة المكملة لصورة ذلك اليوم ·

وقد وردت لفظة المطر بمعناها (الخاص) في بيت له عند مدحه الملك العزيز (الديوان ص ٢٨٦) :

وكان للغيث يد عنـدهم
لانه منك لهم قد أجار

لو لم يعق سيفك ماسح من

هام مطير سح هام مطار

فقد قصد الغيث لذاته حيث خدم الأعداء في معركته وكان عائقا للممدوح في مواصلة المعركة حيث انهمر أياما وهم مقيمون بمواقعهم ، وقد استخدم (مطير ومطار) بمعناهما الخاص وعنى بها بان هذا اليوم المطير لم يكن خيرا عليك اذ عطل سيفك ان يجتز رؤوس الأعداء .

وقد وردت لفظة الغيث في شعره كقوله (الديوان ص ٢٢٠) :

يد تسح فقال الغيث وا أسفا

والبحر واكمدا والسيل وا حسدا

فجود يد الممدوح جعل الغيث يأسف ، وجعل البحر والمد والسيل يحسدونه لكثرة ما تجود به .

وفي المعنى نفسه ترد لفظة الغيث في قصيدة مدح بها الأجل الفاضل (الديوان ص ٢٢٢) :

كالبحر حين طمى والغيث حين هما

والنجم حين سما والبدر حين بدا

فلفظة (الغيث) خلال هذه الأبيات لا ترد بمعناها المباشر عنصرا من عناصر الطبيعة وانما جاء بها الشاعر ليضفي معنى الجود والكرم على ممدوحه كقوله أيضا (الديوان ص ٢٧٤) :

كما أنه لم يعرف الجود قبله

وفي الحق ان لا يذكر الغيث بعده

★ ★ ★

وعندما ننتقل الى الشعر في العصر الحديث ونحن نعي ما أصاب

الشعر في هذا العصر من تغير في بنية القصيدة ، وفي ايقاعاتها وفي مدلولات ألفاظها فأننا سنقف عند تعامل الشاعر المعاصر مع عناصر الطبيعة ، لان المطر أو الغيث هما أحد عناصرها فنجد مثلا كما أشار الدكتور عزالدين اسماعيل (ان الشاعر المعاصر ارتفع باللفظة الدالة على العنصر الطبيعي كلفظة المطر من مدلولها المعروف الى مستوى الرمز في بعض استخدامات الشعراء المعاصرين) (الشعر العربي المعاصر ص ٢١٩) ٠

ونقف في هذا الجانب عند أحد رواد الحركة الشعرية الحديثة وهو بدر شاكر السياب لاكثر من سبب ومنها أن هذه اللفظة (المطر) ألحت على الشاعر حتى طغت على الكثير من ألفاظ قصائده ، ومن مظاهر الحاحها على ذهنيته انه عنون قصائده بهذه اللفظة مثل (انشودة المطر) و (مدينة بلا مطر) ٠

ولان تعامله مع هذه اللفظة تعامل مختلف فقد أشار عبدالرضا علي في كتابه (الاسطورة في شعر السياب ص ١٥٤) الى انه كان يرى فيه أي المطر الفكرة السائدة قديما من أنه أصل الحياة ، بينما نجده في قصائد أخرى يحمله معنى الثورة على القهر الاجتماعي والسياسي ، في حين نجده مرة ثالثة يعده صنوا للدم كذلك لا نعدم أن نجده في قصائد أخرى رمزا للبعث والحياة ، وقد يكون حاملا للنقيضين : الموت والحياة) ٠

ونستدل بما ذهب اليه عبدالرضا من ان المطر (أي الغيث) أصل الحياة على أن السياب متأثر بالفكرة عند القدماء حيث انهم عندما يصيبهم الجدب يقدمون الأضاحي لاستنزال الغيث أو ما يسمى بصلاة الاستسقاء ، حيث كانوا يجمعون لها بقرا معلقة في أذنابها النبات والشجر يصعدون بها الى جبل وعر ويشعلون فيها النار ويضجون بالدعاء والتضرع ، وكانوا يرونها من الأسباب المتوصل بها الى نزول الغيث ، وفي ذلك قال أمية بن أبي الصلت (نهاية الأرب ج ١ ص ١٠٩ ، ١١٠ ٠ انظر الحيوان ج ٤ ص ٤٦٦ ، ٤٦٧) :

ويسوقون باقر السهل للطو
د مازيل خشية أن تبورا
عاقدين النيران في بكر الاذ
ناب منهـا لكي تهيج النحورا
سلع ما ومثله عشـر ما
عـائل ما وعالت البيقور

أما قصيدة السياب التي يرمز بها الى النماء والحياة فهي :

كأن أقواس السحاب تشرب الغيوم
وقطرة فقطرة تذوب في المطر ...
وكركر الأطفال ، عرائش الكروم ،
ودغدغت صمت العصافير على الشجر
أنشودة المطر ...
مطر ...
مطر ...
مطر ...
تثاءب المساء ، والغيوم ما تزال
تسح ما تسح من دموعها الثقال
وينثر الغناء حيث يأفل القمر
مطر ...
مطر ...
أتعلمين أي حزن يبعث المطر ؟
وكيف تنشج المزاريب اذا انهمر ؟
وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع ؟
بلا انتهاء ـ كالدم المراق ، كالجياع ؟

كالحب ، كالاطفال ، كالموتى ـ هو المطر !

. . . . . .

فنجد الشاعر في هذا المقطع من القصيدة ينقل حيرته بصيغة السؤال فهو بعد ان كان المطر هو الحياة وهو البعث في مقطعه السابق نجده الآن يبعث الحزن ، ولكي يكمل صورة الحزن المرتبطة بالمطر جعل المزاريب تنشج بالبكاء اذا انهمر وان الوحيد يشعر فيه بالضياع .

وقد قرنه بالدم في قوله (بلا انتهاء ـ كالدم المراق)

ثم يقول (كالحب ، كالأطفال ، كالموتى ـ هو المطر) !

فقد جمع النقيضين في آن واحد فهو كالحب وكالأطفال يصوره بالحياة والنماء وفي الوقت نفسه كالموتى هو المطر ، وتقابل (الموت والحياة) كان أكثر الأدوات التي تعامل بها بدر السياب .

ثم ينتقل بالمقاطع التالية الى تقديم الصلوات لاستنزال المطر ، فعواصف الخليج ، والرعد تنشد (تصلي) لاستنزال المطر .

ثم يعود ثانية للمعنى الأول وهو الحياة في قوله :

في كل قطرة من المطر
حمراء أو صفراء من أجنة الزهر
وكل دمعة من الجياع والعراة
وكل قطرة تراق من دم العبيد
فهي ابتسام في انتظار مبسم جديد
أو حلمة توردت على فم الوليد
في عالم الغد الفتى ، واهب الحياة !
مطر ...

مطر ...

مطر ...

سيعشب العراق بالمطر .....)

(الديوان ص ٤٧٤ ـ ٤٨٤)

فكل دمعة من الجياع والعراة ، وكل قطرة دم تراق من العبيد هي قرابين تقدم لاستنزال المطر ليعم الخير العراق .

وفي قصيدته (مدينة بلا مطـر) تتوالى هذه المعاني التي يوردها الشاعر من خلال استخداماته للفظة (المطر) فيقول (الديوان ص ٤٨٦ ـ ٤٩١) :

سحائب مرعدات مبرقات دون أمطار
قضينا العام ، بعد العام ، بعد العام نرعاها ،
وريح تشبه الاعصار ، لامرت كاعصار
ولا هدأت ـ ننام ونستفيق ونحن نخشاها
فيا أربابنا المتطلعين بغير ما رحمة ،
عيونكم الحجار نحسها تنداح في العتمة
لترجمنا بلا نقمه ،
تدور كأنهن رحى بطيئات تلوك جفوننا ...
حتى ألفناهـا ،

فالشاعر هنا ينقل ما ألم به من احباط بعد ثورة تموز التي كان يحلم بأنها الأمل ، وانها الفرج للعراق بعد الظلم والطغيان ، فالمطر هو الفرج ، وهو النجاة من الظلم لكن اليأس وعدم التفاؤل بوصول الغيث لينهي فترة الضيم التي سادت العراق كانت تسيطر على نفسية الشاعر فيقولها بنفس عافهـا الأمل والاستبشار بقدوم هـذا الغيث ولكن مرت الأعوام ، كثيرا ما حسبناها ،

بلا مطر ..... ولو قطرة
ولا زهر ..... ولو زهرة
بلا ثمر ـ كان تخيلنا الجرداء انصاب اقمناها
لنذبل تحتها ونموت
سيدنا جفانا · آه ياقبره

وفي نهـاية مطافنا حول هاتين القصيدتين وتحليلنا للمعاني التي أرادها الشاعر باستخدام لفظة المطر نجده قد استخدم هذه اللفظة بمعنى الحياة والنماء والبعث ولم يستخدم لفظة الغيث ، ونجده أيضا استخدمها في حالات قليلة وقرنها بالدم ، فالسياب لم يخرج عما سار عليه شعراء العربية الذين مررنا بهم ، في استغلالهم هذه اللفظة في معنى (الخصوبة والاغاثة والنماء) وفي معنى (الدمار والعقاب والعذاب) أيضا ·

وشاعرنا في هذه الوقفة هو أحمد العدواني ، وقبل الاسترسال في الحديث عن القضية الأساسية في هـذه الدراسة تستوقفنا أمور عديدة تجدر الاشارة اليها وهي ان الولوج الى ذهنية هذا الشاعر تحتاج الى طقوس خاصة وتحتاج أيضا الى معايشة مع الفاظه لاستشفاف معانيه العميقة ، وهـذه خاصة من خصائص الشاعر ، اضافة الى انه شاعر معاصر وككل الشعراء المعاصرين صاحب شعرهم الكثير من الرمز والغموض وان كان بدرجات متفاوتة · وقد صادفنا هذه المعاناة ـ كما مر بنا ـ عند انتقالنا من الشعر القديم الى الحديث وكانت البداية مع السياب وبعد أحمـد العدواني ، فلنرحل مع شعره وعبر بحاره وهدفنا الوقوف على اللفظتين اللتين عنينا الاهتمام بهما خلال هذا البحث وهما (المطر ، والغيث) ·

وأول ما يصادفنا قول من قصيدة معزتنا العجفاء (الديوان ص ٧٤) :

روح الجراد في ضميرها المسعور
لا تبقى ولا تذر

تلتهم الزرع وتشرب المطر
حتى منازل السمر ....

فالمطر الذي تشربه هذه المعزة العجفاء يتضح من السياق انه مطر الخير والنماء والحياة وليس مطر العذاب كالذي جاء في قوله : من قصيدة (وقفة على طلل ص ٨١) :

... وذات ظهيرة والصيف
تمطر شمسه النيران
ترفقت بدرويش ....
يهرول .... يسأل الحيطان عن ظل
فجئت به الى اهلي
فثار الاهل والجيران
وقالوا لي ....
تجنيت على الاعراض والاحساب
اتؤوى عندنا الاغراب ؟
مكان رفيقك الدرويش ...
ـ لو تعقل ـ عند الباب ....

فالمطر هنا هو العذاب الذي امطرته نيران الشمس المحرقة في ظهيرة صيف قائظ فالشاعر استخدم الفعل من هذه اللفظة وأراد به المعنى الخاص الذي اهمله الكثير من الشعراء . لكن الشاعر بعد خطوات قصيرة من ديوانه نجده يستخدم فعل هذه اللفظة نفسه ويريد به المعنى العام وهو الخير أو الجمال الذي انعكس من الخمرة بانوار في قوله من قصيدة (شطحات في الطريق) ومطلعها (الديوان ص ٨٦ ، ٨٧) :

هات اسقنيها !! لست من سماري
ان لم تكن للكاس رب الدار

هي بنت من ؟؟ الشمس دارة اهلها
ابدا ونحـــن الاهـــل للاقمـــار

حتى قوله :

صليت لما امطرت انوارها
ما اروع الصلوات للانوار

وقد ترد لفظة (المطر) بمعناها المباشر عنصرا من عناصر الطبيعة كما يصف روضة غناء نزل بها الشاعر (الديوان ص ٩٢) :

واذا نزلت بروضة ممطورة
وألفت طيب الروضة المعطار

وترد لفظتا المطـر والغيث في الشطر الواحـد في قوله (الديوان ص ٢٢٢) :

قالت : كريم لا يبارى رفـــده
جـم المروءة والندى سمح القرى

فاجبتهـا : أيكـــون أندى نائلا
وأعم من غيث لصوب ممطرا

★ ★ ★

بعد استعراضنا خلال هذا البحث لعدد من الشعراء في عصورهم المختلفة وبيئاتهم المتباينة ، وبعد الوقوف عند تعاملهم مع لفظتي (الغيث والمطر) سواء جاء تعاملهم لهاتين اللفظتين على انهما عنصران من عناصر الطبيعة التي تغنى بها الشعراء كثيرا أو انهم استخدموهما لتشخيص معنى من المعاني التي عنوا بها في شعرهم ، فاننا بعد هذا كله نخلص الى ان لفظة

الغيث لم تثر الجدل ولم تستدع التحليل في الجانب الذي عنينا به في هذا البحث ، اذ كانت تاتي دائما بمعناها الخاص سواء استخدمت لذاته أي لوصف هذا العنصر الطبيعي ، أو جاءت لتشخيص معنى من المعاني ، فهي ترد والمراد بها دائما وأبدا الخير والنماء والاغاثة ٠

أما لفظة (المطر) فهي التي استغرقت الكثير في تحليلها وتوضيح أساليب الشعراء في استخدامها ٠

ونخلص أيضا الى أن هذه اللفظة لم تستخدم بمعناها الخاص وهو العذاب والعقاب الا عند عدد قليل من الشعراء هم : المهلهل ، وذو الرمة ، والاخطل التغلبي ، والمتنبي ، وبدر شاكر السياب ، وأحمد العدواني ، وفي أبيات قليلة من أشعارهم ، حين يجدها الشاعر متلائمة مع السياق فيسهل تناوله لها ، وانما في الغالب الاعم كانت تستخدم كاستخدام العامة ويعني بها الخير والنماء وغيرها من المعاني التي لم يستخدمها القرآن الكريم الا في لفظة الغيث ٠

وقد يحق لنا تأكيد هذا الأمر وان كنا لم نأخذ جميع شعراء العربية في جميع العصـور وفي جميع البيئات ليس لصعوبة تحقيق هـذا الامـر ـ فحسب وانما لاننا انتخبنا المتميزين والمبرزين في عصورهم وفي بيئاتهم المختلفة ، فاختيار النخبة في كل عصر يعطي ملمحا واضحا في ابراز هذه الظاهرة التي أخذت بالدراسة خلال هذا البحث ٠